سياسة الاستغراب الفرنسي في الجزائر

بقلم د/شـــــايف عكـاشة

إن إحســـاس الاستعمار الفرنسي بمدى تشبث الجزائري بدينه و إدراكه بأن قـــوة الإسلام تعد أهم ما احتفظ به الجزائري بعدما سلب منه وطنه الذي هو رمز وجوده و عنوان شخصيته ، إحساس الاستعمار ببقاء هذا العنصر الحيوي الفعال في بـــاطن كل جزائري بالدور الإيجابي الذي يلعبه في إبقائه له عنصر خلوده وفعاليته، هو الذي جعل الاستعمار الفرنسي يقف من الجزائري موقفا معاديا .

مرت السياسة الاستعمارية الفرنسية في تغريب الجزائر بمجموعة من المراحل:

أولا : مرحلة المسخ :

تتجـــلى معالم المشروع الاستعماري الفرنسي الخاصة بمحاولة مسخ العادات والتقالـــيد العربـــية الإسلامية التي تمثل العمود الفقري لبنية الشخصية عند المواطن الجزائري في الخطة الجهنمية التي حاول تنفيذها منذ وطئت قدمه على الجزائر و التي بناها على فرضيته التي تقول : (إن جزائريا غير متقيد بالإسلام أسهل على الاحتواء و الضم بكثير من الجزائري المتدين ، المتمسك بعقيدته) .

لقد أدرك المستعمر الفرنسي قبل استيلائه على الجزائر أنه لا يستطيع المحافظة عـــلى احتلاله للأرض في غياب عملية المسخ التي تهدف إلى وضع الشعب الجزائري في دوامة الاتحاد .

و قد تمثلت خطته الأولية في تشجيع و تسهيل استخراج رخص فتح المقاهي و الحانـــات الـــتي تسمح بشرب الخمر وتعاطي المخدرات ، كما غطى جل تراب الجزائـــر بالكـــروم التي ساهمت مساهمة مباشرة في تأكيد زيادة الإقبال على تناول الخمور .

و قـــد بلغ - في هذا المجال - ببعض المبشرين الاستعماريين أن طالبوا جهارا بضرورة تعويد الجزائريين على شرب الخمر و تعاطي كل ما قد يسهل القضاء على المبادئ الإسلامية العتيقة و زعزعتها [2].

كمـــا عمد الإستعمار إلى توسع أبواب التبرج والفسق والزنا حيث أمر بفتح بـــيوت الدعارة في كل المدن والقرى الجزائرية، فأصبح في استطاعة كل شاب بلغ ســـن المراهقة أن يلج ما يشاء من تلك البوت كما صار في إمكان كل فتاة متبرجة أن تجد شغلا لها داخل هده البيوت.

و شـــجع الاســـتعمار أيضا على زيارة الأضرحة ، و على انتشار الشعوذة والدجل بما كان يقدمه لمريدي هذه الحركات من مساعدات مادية و معنوية متسترا أحـــيانا كـــثيرة وراء قاعدة الالتزام باحترام عادات و تقاليد و مقدسات هذه الفئة الشـــعبية ، بـــل لقد بلغ به الأمر أن سعى إلى توظيف الدين الإسلامي عبر بعض أصحاب هذه الزوايا لتحقيق عدد من مآربه و أغراضه و ذلك لإيمانه بما لهذه الزوايا من تأثير روحي على خيال الشعب الساذج وقتئذ .

ثانيا : مرحلة التنصير :

لم يكـــتف الاســـتعمار الفرنسي بمحاولة إدخال الشعب الجزائري في دوامة الضـــياع عـــن طريق عملية المسخ التي أدخله فيها و إنما رافقه ذلك بعملية أخرى تمثلـــت في استكمال مشروعه الذي نص على أن الجزائر - أرضا و شعبا - يجب أن

تصـــبح فرنسية / و لكي تصبح كذلك ، لابد من أن تلج النصرانية نفوس الشعب الجزائري عامة و شبابه خاصة .

لقـــد شرع الاستعمار غداة الاحتلال في تحويل المساجد إلى كنائس حول - عـــلى سبيل المثال لا الحصر - جامع كتشاوة الذي بني عام 1616 إلى كنيسة سنة 1836 و ذلـــك بعدما كان قد أقام فيه أول قداس له يوم 11 يوليو 1830 / أي بعـــد أسبوع فقط من دخوله مدينة الجزائر ، و حول جامع علي باشا الذي أسس ســـنة 1750 إلى دير سنة 1870 بأمر من الكاردينال (لافيرجي) كما حول إلى كـــنائس مسجد البشيني و مسجد الغزال بقسنطينة ... و ذلك فضلا عن المساجد التي دمرت بأمر من السلطة الاستعمارية .

و لعل أحسن شاهد على ما عمله الاستعمار في هذا المجال يستخلص مما جاء في حديـــث القـــس (سوشي) الذي شخص الفترة التي تفصل بين عامي 1839 و 1841 ، متحدثا عما فعله (فالي) - حاكم مدينة الجزائر آنذاك - يقول : (أن الســـي دفالي ... صاحب ضمير ... أنه الرجل الملائم لهذه المستعمرة. إنه يريد على الخصـــوص أن يكـــون الدين المسيحي مستقرا و محترما في كل مكان، و هو يريد مضاعفة عدد الكنائس في مدينة الجزائر) [3] .

و لتأكـــيد أبعاد هذه التزكية ، و في مقابل التحويل و المسخ اللذين شهدهما المســـاجد الجزائرية ، كانت تقام كنائس في أغلب ربوع الوطن و كان أول هدف ســـارعت إلى تحقـــيقه الكنيســـة في الجزائر ،هو محاولة تمسيح أكبر عدد ممكن من الجزائريين .

و في مقـــابل تشجيع الاستعمار لأمثال هذه الطقوس الشاذة ، حارب بشدة كـــل الشـــعائر الإســـلامية الصحيحة السليمة ، فقد أخضع - مثلا - عملية القيام

بفريضة الحج لرقابة مشددة ، و ظل يمنع هذه الشعيرة من سنة لأخرى ، مختفيا وراء أعـــذار واهـــية ، كانتشار أمراض و أوبئة ببقاع الحج و لكنه أشار أحيانا أخرى صـــراحة - لما لم يجد بديلا لذلك - إلى رفض السماح للقيام بهذه الشعيرة الإسلامية و الـــتاريخ الاســـتعماري يحفظ لنا الكثير من هذه المواقف ، منها مثلا أن الحاكم العســكري (دي غيدون) قد أمر عام 1873 بمنع القيام بفريضة الحج على جميع الجزائـــريين ، متذرعا بأسباب سياسية واهية منها أن التجربة أثبتت له أن الحجاج يعـــودون مـــن الـــبقاع المقدســـة أكثر تطرفا و أقل استعدادا للخضوع لسيطرة الاستعمار [4].

بالإضـــافة إلى كـــل هـــذه الحـــيل التي وظفها الاستعمار في محاربة الشعائر الإسلامية و في إتلاف المساجد و مسخ ما تقدمه من تعاليم إسلامية ، عمد إلى نشر روح البلبلة و الإلحاد في صفوف المسلمين عن طريق تعيينه للمفتي والمأذون الشرعي و فراش المساجد ، عبر كل أنحاء الوطن تحت إشراف (فرنان ميشال) الذي لقبته إحـــدى الصـــحف الوطنية وقتذاك ، و من باب السخرية - بسيدي ميشال مفسر القرآن الجديد .

و تجـــدر الإشارة هنا إلى أن فرنان ميشال قد انطلق من قاعدة تنص على أن الجزائـــريين لا يخضعون لفرنسا إلا إذا أمسوا فرنسيين ، و لن يمسوا فرنسيين إلا إذا صاروا مسيحيين [5].

تجـــلى للعيان ، كيف أخذ الاستعمار يبيت نية الاضطهاد الديني بطريقة جد مكشـــوفة بل لم يكتف في محاولة طمس معالم الدين الإسلامي في الجزائر بطريقته المباشـــرة ، و إنمـــا عمد - أحيانا - إلى وسيلة خفية ظاهرها التعاطف مع الفقراء واليتامى ، و باطنها استغلال هذه الأرواح الطيبة البريئة في تنصير الروح الإسلامي

النابـــت فـــيها ، فقد أنشأ بيوتا كثيرة لليتامى بالمدن الجزائرية ، جعلها – آنذاك - افخاخـــا للناشئة التي تلجها . فمسؤولو هذه البيوت قد وضعوا على عاتقهم تنصير كل من أجبره قهر الجوع و الفقر على اللجوء إلى هذه المصيدة المحبوكة .

كمـــا اغتـــنم الاستعمار فرصة المجاعة في الجزائر سنة 1867 و انشأ جمعية خيرية تحت إشراف الأباء البيض وغايتها الأساسية تنصير الأطفال الجزائريين .

ثم أعقب تأسيس هذه الجمعية تأسيس جمعيات أخرى للأخوات البيض ، وقد عهـــد إلى هـــذه الجمعيات تحقيق التنصير و ذلك بفضل تسربها السهل إلى وجدان الأســـرة الجزائرية ، و خاصة بواسطة ما تقدمه لها من خدمات اجتماعية وإنسانية المظهر ، و كذلك باحتضانها لأطفال جزائريين و تنشئتهم نشأة نصرانية .

يؤكـــد هذا ما كتبه (جورج غويو) في مقدمة كتاب ألفه بمناسبة الاحتفال بالذكـــرى المـــئوية لاحتلال الجزائر ، عند استعراضه لنشاط مؤسسات التبشير في الجزائر ، حيث يقول مشيدا بما قامت به هذه الجمعيات (حسن النظر إلى الأخوات البـــيض في القـــرى الجزائـــرية ...) بأن التأثير الذي يحدثه على تلاميذهن يمتد إلى أســـرهم، ثم يمـــتد فيما بعد إلى الأجيال التي سيشرف عليها هؤلاء التلاميذ ... إن الإسلام كان قد طرد المسيح ، و هاهن الأخوات البيض من أجل إعادة المسيح حتى تستقر مملكته من جديد في هذه الديار(6).

كمـــا يؤكـــد هذه المقولة القائد العسكري (بيجو) الذي وجه رسالة إلى (ريجـــيس) موضحا له فيها العلاقة المتينة التي تربط مهمة الجندي الفرنسي بمهمة الراهب في الجزائر .

نســـتخلص مـــن هذا – زيادة على الطابع الاستعماري لمشروع التمسيح – النزعـــة الصليبية الانتقامية عند هؤلاء الغزاة الذين اعتبروا تنصير الجزائر مهمة إلهية

مقدســـة ، و هذا انطلاقا من اعتقادهم الراسخ – رغم خطاه – بأن أرض الجزائر أرض مســـيحية أصـــلا ، و من ثم ينبغي العمل على إعادها إلى ما كانت عليه في الأول (في عهد الاحتلال الروماني).

و بناء على هذه الفرضية ، نفذ الكاردينال (لافيجري) خطة واسعة لتنصير الجزائـــريين، حيـــث كتـــب في مقدمة مشروعه الذي وجهه إلى مختلف الطوائف المســـيحية في العـــالم يقول : (علينا أن نجعل الأرض الجزائرية مهدا لدولة مسيحية عظيمة ، أعني بذلك فرنسا أخرى يسودها الإنجيل ، دينا و عقيدة[7].

و قـــد أيد هذا المشروع – وقتذاك – الحاكم العام الفرنسي (الأميرال جيدو) بقولـــه :(إن هـــذا هـــو الســـبيل الوحـــيد لتجنيد الجزائريين) ، كما لب رغبة (لافيجري) عدد من الطوائف المسيحية إذ نزل بالجزائر مباشرة بعد النداء – فريق يتضـــمن مبشرين من بلجيكا و هولندا[8] –ثم تعاقب وصول فرق تبشيرية أخرى تم توزيعها على كل مدن الجزائر .

و عـــلى العمـــوم ، إن مهمـــة التمسيح كانت أول غاية تجند لها الاستعمار الفرنســـي ، و إذا حاولـــنا أن نـــتعمق في معادلة التمسح و الفرنسة التي روج لها الاســـتعمار ، و نفهـــم بواعـــثها النفسية الكامنة في التصريحات المتعددة لمختلف المسؤولين الاستعماريين فإننا لن نجد لها تفسيرا واحدا يحل الإشكال : إنه يتمثل في أن الاســـتعمار كـــان ينظر إلى المواطن الجزائري نظرته إلى كل ما يملكه من أرض ومـــتاع ، و بعبارة أخرى ، لم يكن الجزائري – في نظر الاستعمار – سوى شيء أو مـــادة مكتسبة ، و يجب أن تكيف – بأي وسيلة – لتصبح ملائمة لما تتطلبه المواطنة الفرنســـية . و مـــا أدراك ما المواطنة الفرنسية ، إنها – في عرف الاستعمار – رمز الأصالة و التحضر مقابل شعار الهمجية و التخلف .

لذلـــك كله اشترط الاستعمار أن يربط الجزائري المسلم (بالشيء) فطالما لم ينـــتحل هذا الأخير جنسية الفرنسي (الإنسان)، و يتخلى عن العقيدة الإسلامية ، فإنــه لـــن يصبح صالحا لأن يصير مواطنا فرنسيا - (مع اختلاف كبير في درجة المواطنة المكتسبة) .

و هكـــذا تـــبقى إنسانية المواطن الجزائري مرهونة - في عرف الاستعمار - بمبدأين أساسيي هما : التنصير والتجنيس.

ثالثا : التجنيس :

و في ضـــوء هـــذا ، يمكن القول انه إذا كان خطر التنصير على الجزائريين فادحـــا ، فان خطر التجنيس عليهم كان أفدح ، خاصة إذا عرفنا أن الاستعمار قد هـــيأ لمشروع التجنيس كل وسائله المادية و المعنوية ، يقول محمد الميلي: إن خطر التجنـــيس و فرض الجنسية الفرنسية بوسائل و إغراءات عديدة كان أشد الأخطار التي داهمت الشعب الجزائري ، وهددت انسجامه الاجتماعي ، و عملت على تفتيته مـــن الداخـــل . ذلك أن الاستعمار الفرنسي أدرك أن الحكم على مجموع الشعب الجزائري بأنه فرنسي ، لا يكفي في تحقيق الفرنسية ، طالما أن القانون الاستعماري كـــان يـــنص – (لأنـــه لم يســـتطع أن يفعل غير ذلك) – على الانتماء الديني للجزائريين الأصيل - (و هذا كخطوة أولية فقط) – فكانت بطاقة الهوية تحمل عـــبارة (فرنســـي – مسلم) . و من هنا كان مسعى التجنيس يهدف إلى القضاء عـــلى صفة (المسلم) ، لكن ليس من باب التنصير كما كانت تعمل لذلك جهود الأبـــاء (و الأخوات) البيض ، وإنما من باب المواطنة الفرنسية الكاملة إذ كان قـــانون التجنـــيس يفـــرض على الجزائري المتجنس أن يتخلى على قانون الأحوال

الشخصـــية في معاملاته اليومية ، أي عن الفقه الإسلامي في كل ما يتعلق بالأحوال الشخصية ... [9]

و مما لا شك فيه أيضا أن دعوة التجنيس قد نشطت بعد أن تحقق الاستعمار مـــن فشـــل جميع المساعي التي سخرها لمشروع التنصير مع الإشارة إلى أن مسعى التجنيس في الجزائر قد سبقته عدة ظواهر و مراحل مهدت له منها :

1 – فرض الخدمة العسكرية على الجزائريين ، حيث تم استدعاء عدد كبير من أبناء الجزائر للقيام بالخدمة العسكرية تحت العلم الفرنسي ، كما تم في هذا المجال مشاركة عدد هائل من الجنود الجزائريين في الحربين العالميتين .

و نظرا إلى ما قد تلحقه هذه الضريبة المتمثلة في المشاركة الإجبارية للمواطن الجزائري بأغلى ما يملكه ، وهو عرقه و دمه في خدمة العلم الفرنسي، فإن آثار هذه المشـــاركة القســـرية قد ينتج عنها نوع من القابلية الوجدانية لهذا العلم ، و من ثم للكـــيان الفرنســـي ذاته ، و هو بالفعل ما حصل لدى فئة غير قليلة ، من المواطنين الجزائريين الذين أجبروا على خدمة العلم الفرنسي ، حيث وجدوا أنفسهم منجذبين تلقائيا ، و أحيانا لا شعوريا ، إلى الاطمئنان للكيان الفرنسي الدخيل ، و أدى ذلك إلى تجـــنس بعضـــهم بالجنسية الفرنسية كما أن خوف بعضهم الآخر على فقدان مصـــالحه الـــتي اكتسبها خلال دفعه لضريبة الخدمة العسكرية هو الذي سلط عليه هاجس التجنيس و جذبه إليه .

2 – الـــرواج لقضـــية الظهير البربري التي هي عبارة عن قانون صدر تحت ضغط الإدارة الاســـتعمارية بالمغـــرب الأقصـــى في 16 مايو 1930 يمنح الجامعة المحلية صـــلاحيات قضائية و ينشئ محاكم تستند أحكامها لا إلى الشريعة الإسلامية ولكن إلى العادات و التقاليد البربرية القديمة[10] .

و نشير – في هذا الصدد – إلى أن تصريحات كثيرة لمسؤولين استعماريين قد مهدت لظهور هذا الظهير ، منها – مثلا – ما نشره (فيكتور بيكي) عام 1925 في كتاب له عن الشعب المغربي ، حيث جاء فيه قوله ((إن الفكرة الأساسية التي يجب أن نتشبع بها هي أن الشعب المغربي ليس عربيا))[11] .

و على الرغم من أن الظهير البربري كان يخص – ضمنيا المغرب الأقصى، فقد ترتب عليه بزوغ نتائج وردود فعل في الجزائر ، لأن الإدارة الفرنسية كانت تفكر – وقتذاك – في إخراج جزائري للفكرة نفسها خصوصا وأن الفكرة المذكورة وجدت قبولا لدى بعض العناصر الجزائرية و التونسية التي كانت قد تجنست بالجنسية الفرنسية.

3 – ظهور عدة جمعيات بالجزائر اهتمت بتحقيق مشروع الفرنسية ، مثل (جمعية معلمي الجزائر من أصل أهلي) و (رابطة المواطنين الجزائريين من أصل مسلم) و (الاتحاد الكاثوليكي الأهلي) ... و قد كانت لهذه الجمعيات منابر صحفية تصدر باللغة الفرنسية ، مثل صحيفة (صوت الضعفاء ، التي كانت تصدر في مدينة الجزائر ، و كان برنامجها التي تبنته يتلخص حسبما حددته في (تطوير الأهالي بواسطة الثقافة الفرنسية) و كان المشرفون على هذه الصحيفة كل من محمد ليشاني و العربي طاهرات و سعيد الفاسي . و صحيفة (صوت الأهلي) التي كانت تصدر في قسنطينة و كان منشطها رابح زناتي ، و صحيفة (LE M'TOURNI) أي المتجنس[12] و هي كلمة محرفة عن كلمة NATURALISE وشاع آنذاك استعمالها في اللهجة العامية ، بل هي فيما يبدو لي – كلمة محرفة عن كلمة (TOURNER) و يقصد بها (المرتد) الذي يرتد عن دينه ، كما يشتم من هذه الكلمة رائحة السخرية و الاحتقار لمن وصف بها .

4 – محاولة بعض دعاة الفرنسية و أنصارها بلورة نظرية تاريخية و مسعى إيديولوجي يتلخص في الاعتماد على بعض الفرضيات التي لم ترق إلى درجة اليقين العلمي للزعم بأن الشمال الإفريقي هو امتداد (عقيدي) لجنوب أوربا[13].

ففي ضوء هذه الفرضية الباطلة ، أخذ منظروا الاستعمار يروجون لمقولة (البربر من أصل أوربي)، كما صرح الاستعمار في مناسبات كثيرة ، على لسان شخصيات فرنسية مدنية و عسكرية ، أمثال الماريشال (نيل) الذي أكد عام 1864 بأن فرنسا تقيم آمالا كبيرة على الجنس البربري أكثر مما تقيمه على الجنس الآخر في تحويل الجزائريين إلى فرنسيين[14].

و قد عمد الاستعمار إلى هذه الحيلة قاصدا من وراءها تفتيت وحدة الشعب الجزائري من جهة و فصله نهائيا من بقية شعوب الوطن العربي و العالم الإسلامي من جهة أخرى ، مستغلا في هذا مبدأه الروماني الاستعماري (فرق تسد).

و مما لا شك فيه أن جهودا كثيرة ، دينية و سياسية ، تضافرت على مواجهة دعوة التجنيس و ذلك انطلاقا من الحرص على الوحدة الوطنية و صيانة انسجام الشخصية العربية الإسلامية للجزائريين .

أما فيما يتعلق بدور الجانب السياسي في التصدي لأخطبوط التجنيس – (خاصة بعدما فصل الاستعمار لدهائه بين التنصير و التجنيس ، إذ سمح للمجتنس بالمحافظة على دينه ، و ذلك بالطبع – بعدما عجز عن بتر الإسلام من روح الجزائريين) – فإن أهم ما يمكن قوله ، أن الوعي السياسي لم يكن في ذلك العهد في مستوى الصراع إذ لم يكن قد نضج نضجا كاملا حتى يستطيع أن يواجه أخطار هذا الأخطبوط مواجهة سياسية حكيمة .غير أن جمعية العلماء المسلمين قد تفطنت

– وقتذاك للنتائج المدمرة التي كان يخطط لها الاستعمار في الخفاء من وراء مشروعه في التجنيس .

و على الرغم من أن الجمعية نظرت إلى هذا المشروع – في بادئ الأمر – من منظور ديني محض ، فإنها استطاعت أن تعرقل ، إن لم نقل توقف ، سريان سم هذا المشروع في أرواح المواطنين الجزائريين ، و كان ذلك على الخصوص ، بفضل الفتاوى التي أصدرتها الجمعية ضد التجنيس .

و قد نشرت أول فتوى تحرم التجنيس في (البصائر) الصادرة بتاريخ 14 يناير 1938 و مما جاء في هذه الفتوى (التجنيس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة و من رفض حكما واحدا من أحكام الإسلام عد مرتدا عن الإسلام بالإجماع) ... و التجنس - بحكم القانون الفرنسي - يجري تجنسه على نسله ، فيكون قد جنى عليه بإخراجهم من حظيرة الإسلام ، و تلك الجناية من شر الظلم و أقبحه و إثمها متجدد عليه ما بقي له نسل في الدنيا خارجا عن شريعة الإسلام بسبب جنايته(15).

و تجدر الإشارة هنا إلى أن الفتاوى ضد التجنيس في تلك الظروف كانت بمثابة الحاجز أو الواقي المتين الذي عمدت إليه جمعية العلماء المسلمين لتسد جميع الأبواب أمام مشروع التجنيس الاستعماري . و قد يتأكد هذا من خلال الملاحظتين التاليتين :

1 - لم يكن مدى تلك الفتاوى محدودا بحدود قراء جريدة البصائر بل عممت عبر شبكات التبليغ و الاتصال للجمعية ممثلة في الشعب التي أوجدها أصحابها في مختلف مناطق الوطن ، كما أن الفتاوى قد تناقلت عبر الجمعيات الدينية المشرفة على المساجد الحرة ، و كذلك عبر جمعيات المدارس الحرة ، و عبر النوادي التي كانت

تلقـــى فيها المحاضرات . وبذلك يمكن القول أن صوت الفتاوى ضد التجنيس قد تم تعميمه في كل أرجاء البلاد .

2 - و لكـــي نتصور صدى الفتاوى و مدى تأثيرها - آنذاك - في نفوس المواطنين الجزائـــريين يجب أن نشير إلى بعض ما ترتب عنها من نتائج عملية : فالحكم على المتجـــنس بأنه مرتد ، يعني منعه شعبيا من الدفن في مقابر المسلمين، وهذا الحرمان وحـــده قد شكل عاملا حاسما ضد التجنيس إذ قد حدث - مثلا - أن سكان قرية [illegible]يرة [illegible]ولوا دون دفن المتجنس في مقابرهم بناء على فتاوى الجمعية ، و قد تناول الناس حكاية مأساة الأسرة التي وجدت نفسها أمام جثة جلبت لها من العار و هي هامدة أضعاف ما جلبه لها صاحبها و هو حي يرزق(16).

و في ضوء هذه النتائج العلمية التي ترتبت على موقف جمعية العلماء المسلمين من التجنيس ، فضلا على نشاطها التعليمي و بعثها للتاريخ العربي الإسلامي ، يمكن القول أن المظهر الديني لهذه الجمعية كان يؤدي في الوقت نفسه خدمة كبيرة للتيار السياسي المناهض للاستعمار .

و هكذا يبقى تقييم جمعية العلماء المسلمين من الزاوية الدينية على الرغم من أهميـــته - تقيـــيما ناقصـــا، طالما لم يكشف النقاب على البصمات السياسية لهذه الجمعية .

و الحق إن من الدوافع التي دفعت بعض الباحثين إلى حصر دور جمعية العلماء في الإصلاح الديني و تجاهل عمقها السياسي ، هو ذلك الشعار الذي تبنته الجمعية في عهدها الأول ، و الذي لح على أنه لا علاقة لها بالسياسة ،لكن عمل المؤرخ أو الباحث لا يجوز أن يقتصر على ما يقال بل يتعين عليه أن يبحث في ما حدث من وقائع ، و ما ترتب عنها من نتائج . فالعبرة هنا و في كل مبحث هو بما أفضت إليه

هذه الحركة بالفعل و إذا اكتفينا بالحكم على أعمال الجمعية بأنها ليست لها جوانب أو نتائج سياسية إيجابية ، لمجرد أنها قالت بأن أنشطتها تقع خارج العمل السياسي ، فإننا نكون مثل الذي صدق بما سمع و كذب بما رأى . على أن بعض الباحثين لم ينخدعوا بدعوى الجمعية عدم الاشتغال بالسياسة مجرد مناورة أو تقية للتضليل والخداع(17).

رابعا : محاربة اللغة العربية :

ولم يتوقف الاستعمار عند محاربة الدين الإسلامي و محاولته نشر المسيحية وفرض التجنيس ، بل تعداه إلى محاربة كل ما له صلة - قريبة أو بعيدة - بالإسلام ، فقد بلغ به الأمر - مثلا - أن أكد عام 1897 على لسان وزيره للتعليم (ألفريد رامبو) بأن السيطرة الكاملة لفرنسا على الجزائر ستتم بفضل سيطرة اللغة الفرنسية على ضرتها اللغة العربية وظل الاستعمار يتصدى لكل من اهتم بتعليم اللغة العربية في الجزائر ، و لما اشتد الصراع الفكري والديني قبيل الحرب العالمية الثانية بين الاستعمار و المؤسسات الدينية و السياسة الجزائرية ، عمد الاستعمار إلى حقه في (الفيتو) العسكري، فأصدر - سنة 1938 - مرسوما يحرم فيه - نهائيا - تدريس اللغة العربية و حفظ القرآن ، ويفرض - في الوقت نفسه - أوليات اللغة الفرنسية بنسبة لا تسمح إلا بانتشار مقدار ضئيل ، يتماشى و سياسته التجهيلية(18)، مع الإشارة إلى أنه قد سمح لفئة قليلة من أبناء المتجنسين أن ترفع - نسبيا - مستواها التعليمي، وذلك حتى يتسنى لها أن تعمل في بعض الإدارات المدنية ، وهذا شريطة أن يكيف بحيث تصبح أداة فعالة لتدعيم الوجود الاستعماري في الجزائر .

و قـــد حاول (جول فيري) - وزير التربية آنذاك - تطبيق هذه الخطة بحيث تصـــبح المدرسة مصنعا تكيف فيه العقول الجزائرية حتى يمكنها المساهمة الفعلية في خدمة المصالح الفرنسية .

و مـــا يثير العجب أنه بالرغم من هذا الإجحاف في نصيب المواطن الجزائري مـــن اللغة الفرنسية و حرمانه الكامل من لغته العربية فإن المعمرين الاستعماريين قد رفضـــوا رفضـــا قاطعا تعليم الجزائريين في المدارس، و ذلك لما يكلفه مشروع بناء المدارس الإضافية من أموال تنقص من ميزانية الدولة الفرنسية .

و قد جسد هذا المطلب أحد ممثلي المعمرين و هو (فانسي) الذي صرح في اجتماع رسمي للنيابات المالية المنعقد يوم 11 جوان 1902 قائلا (... في هذا البلد الذي تحتاج فيه الأموال لمواجهة احتياجاتنا الأكثر استعجالا ، هل نملك الحق في أن نـــرمي عـــبر نوافذ المدارس بأموال لن تفيد شيئا) . كما عبر عن الفكرة نفسها مؤتمر المعمـــرين بالجزائـــر يوم 21 مارس 1908 ، عندما لاحظ (الخطر الذي يهدد الجزائر الفرنســـية من جراء تعليم الجزائريين سواء من وجهة النظر الاقتصادية أو من وجهة النظر الإسكان الأوربي) . و بناء على هذه الملاحظات ، طالب هذا المؤتمر { إلغاء التعليم الموجه للأهالي (الجزائريين)}[19].

و ظـــل تحريم التعليم على أبناء الجزائر سائدا إلى قيام ثورة التحرير في الفاتح من نوفمبر 1954 التي أرغمت الاستعمار على مراجعة خريطة سياسته التجهيلية .

إضـــافة إلى كـــل هـــذا ، صمم الاستعمار الفرنسي على طمس كل معالم الشخصـــية الجزائـــرية و ذلك عن طريق محاولة إتلافه للتاريخ الوطني و فك الرباط المتين الذي يربط الجزائر بالعالم العربي الإسلامي .

فقد شرعت المدارس الاستعمارية في تدريس تاريخ فرنسا و الرومان واليونان بطريقة تجعل الطفل الجزائري يشعر بأن تاريخ الرجل الأوربي حافل بالأمجاد والروائع الإنسانية ، و في الوقت نفسه دأب الاستعمار في تطعيم التاريخ العربي بخاصة و الإسلام بعامة بروح القرصنة و الصعلكة و بالغ في تشويه الحقائق لكي يعتقد الجزائري أن فرنسا (الأم) هي رمز الإنسانية و إن العرب و المسلمين عامة ما هم سوى ذئاب و قطاع طرق ...

و يكفي في هذا المجال الإشارة إلى تصريح النقيب (لوغلاي) الذي وجهه إلى المعلمين الاستعماريين قائلا فيه (علموا كل شيء للجزائريين ما عدا شيئين : اللغة و الإسلام)[20].

لقد أدرك الاستعمار أن اللغة العربية هي أشد و أمتن العناصر التي تربط الجزائري بصلاته و تحافظ له على انسجام شخصيته ، و إذا ما أزيحت اللغة العربية عن مكانها في نفسية الجزائري ، فإن كل خصائص و مميزات شخصية الجزائري ستميع ثم تزول ، و عندئذ يسهل على الاستعمار أن يلبسه قناع شخصيته أو يفرض عليه أن يتقمصها عن طريق التجنيس و التنصير.

خامسا : التهجير :

كما صاحب كل هذه المحاولات الاستعمارية اليائسة فرض سياسة التهجير التي تمثلت في ترحيل المواطنين الجزائريين من أراضيهم و تعويضهم بمعمرين فرنسيين، طعمتهم الإدارة الفرنسية بأجانب من يهود و إسبان وإيطاليين ومالطيين و برتغاليين ... و ذلك بعدما منحتهم الجنسية الفرنسية ووزعت عليهم أخصب الأراضي الفلاحية و ساعدتهم على زيادة التوسع التدريجي مما أدى في النهاية إلى القضاء الكلي على بقاء الأملاك للمواطنين الجزائريين ، و بات الجزائري مخيرا بين

أن يهاجر إلى خارج وطنه (و بالضبط إلى فرنسا حيث يستغل في التشييد وقد تتم فرنسـيته بالتدريج) و بين أن يبقى خادما مطيعا في أرضه التي صارت ملك غيره ، مـع العلم أن عددا آخر من الجزائريين قد فضل - تحت ضغط وإلحاح سوط سياسة الـتهجير إلى أقطار أوربية أخرى (بلجيكا ، سويسرا ، إسبانيا، إيطاليا ، ألمانيا ...) ذلـك فضـلا عن العدد الهائل الذي تم ترحيله - إبان الثورة التحريرية - إلى تونس والمغرب

كـان هـدف الاسـتعمار من مشروع الهجرة هو تفريغ تراب الجزائر من الإنسـان الجزائـري حـتى يتسنى له أن يركز قواعده على تربة صلبة ، تخلو من الشوائب الجزائرية .

و بـالفعل فقـد تم - خلال مسافة الاحتلال الطويلة - تهجير عدد كبير من الجزائـريين إلى أوربا ، لا تزال الجزائـر -إلى الآن - تعاني من النتائج السلبية التي خلفتها الهجرة[21].

ذلـك قلـيل مـن كثير من الوسائل التي قصد بها الاستعمار طمس معالم الشخصـية الجزائـرية و إتلافهـا حتى لا يتسنى للمواطن الجزائري (الأهلي) أن يسترجع يوما ما مبادئ الإسلام و شعائره .

سادسا : الغزو الفكري :

هـذا بإيجاز بعض ما نفذه الاستعمار الفرنسي في الجزائر أيام الاحتلال ، أما قبـيل الاسـتقلال و بعـده ، فان فرنسا (الديقولية) قد جعلت من أهم أهداف سياسـتها الخارجية نشر الثقافة الفرنسية عبر أنحاء كل مستعمراتها السابقة ، قاصدة مـن وراء ذلـك المحافظـة على استمرار الإشعاع الثقافي الفرنسي في مستعمراتها المسـتقلة، و محاولة تعويض الاحتلال العسكري بالاحتلال الثقافي ، إذ بهذا الوجود

الثقافي يبقى النفوذ السياسي لفرنسا على مستعمراتها السابقة . و هذا ما يوفر ضمانا أكيدا و حصنا متينا لاستمرار ازدهار مصالحها الاقتصادية في هذه البلدان علما بأن التعاون الثقافي (حتى لا نقول الاحتلال الثقافي) الذي قدمته فرنسا إلى مستعمراتها السابقة ، إنما يستهدف على الخصوص نشر اللغة الفرنسية وتوسيع نطاق الثقافة الفرنسية .

و هكذا فإن الوجود الثقافي الفرنسي في الجزائر (و في غير الجزائر من المستعمرات الفرنسية السابقة) إنما هو ينطوي على حقيقة جدلية صالحة ، تتمثل في أن التعاونَ الثقافي يعتبر في آن واحد أسلوبا ناجعا للحفاظ على النفوذ الفرنسي الإمبريالي في هذه البلدان ، كما هو أداة و قناة أساسية لإسداء خدمات فرنسا لمستعمراتها القاصرة .

و ما يؤكد هذه الفرضية أن المفاوض الفرنسي في اتفاقيات إيفيان قد أصر على ضرورة استمرار العلاقات الثقافية و تطويرها بين البلدين[22].

و بالفعل ، سارعت فرنسا - غداة الاستقلال - إلى فتح مراكز ثقافية في كل المدن الجزائرية الكبرى (العاصمة ، وهران ، قسنطينة ، عنابة) و جهزتها بمختلف الكتب ، و وضعت كل التسهيلات لعملية الاستعارة بحيث يستطيع القارئ، و بأبسط الإجراءات أن يستلف ما يشاء من هذه المؤلفات النفسية .

كما وفرت فرنسا لهذه المراكز الإمكانيات المادية الأخرى التي تسهل لها القيام بتقديم برامج ثقافية تتضمن عروض مسرحية و أفلاما سينمائية و حفلات موسيقية و معارض فنية و محاضرات فكرية ...

و إذا تمعنا في كل هذا الاهتمام بهذه المراكز ، (زيادة على أن عدد هذه المراكز يفوق بكثير عدد المراكز التي أقامتها فرنسا في دولة أوربية أخرى ، و فضلا

على أن لفرنسا ما يزيد على 28 دارا ثقافية موزعة على المدن الجزائرية الثانوية) ، فإنـــنا لا نملـــك إلا القـــول بأن هذا الشاهد قوي على إرادة الغزو الثقافي والسعي الحثيث إلى السيطرة المستديمة على الأذهان الجزائرية .

الهوامش

1- محمد الميلي – مجلة (الوطن العربي) – ع : 385 ص : 40 – 41 .
2 – المرجع نفسه – ع : 383 ص : 41 .
3 – المرجع نفسه – ع : 385 ص : 40 – 41 .
4 – المرجع نفسه – ع : 383 ص : 41 .
5 – يونس درمونة – المغرب العربي في خطر – دار الطباعة الحديثة – سنة 1956 – ص : 33 .
6 – مجلة (الوطن العرب) ع : 383 ص : 41 .
7 – المغرب العربي في خطر – ص : 34 – 35 .
8 – المرجع نفسه – ص : 33 – 34 .
9 – الوطن العربي – ع : 390 – ص : 40 .
10 – محمد عبده – الإسلام و النصرانية بين العلم و المدنية دار الحداثة بيروت 1983 . ص :211-212
11 – الوطن العربي – ع : 383 – ص : 40 .
12 – الوطن العرب – ع : 390 – ص : 40 .
13 – المرجع نفسه – ع : 394 – ص : 40 .
14 – المرجع نفسه – ع : 383 – ص : 40 .
15 – الوطن العربي – ع : 390 – ص : 41 .
16 – المرجع نفسه – ع : 383 – ص : 40 .
17 – للتأكد من هذا ، راجع : آثار ابن باديس و آثار البشير الابراهيمي ، ففها ما يؤكد ذلك .
18 – أنظر موقف ابن باديس من هذا المرسوم – البصائر 7 محرم 1357 الموافق ن 8 أفريل 1938 .
19 – راجع : الغزو الفكري في العالم العربي – عبد الله عبد الجبار – الرياض ، السعودية ، 1994 .ص:16 – 17
20 – الوطن العربي – ع : 383 – ص : 40 .
21 – راجع : العلاقات بين الجزائر و فرنسا من اتفاقيات ايفيان إلى تأميم البترول– نازلي معوض أحمد – الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1978 – ص : 144-1154 .
22 – المرجع نفسه – ص : 196 .